

التواصل البيداغوجي: دراسة في المفهوم

Pedagogical communication: a study of the concept

Dr. Anass Bousselam

Educational inspector,

and holds a doctorate from

Hassan II University,

Casablanca.

د. أنس بوسلام

مفتش تربوي، وحاصل على درجة

الدكتوراه - جامعة الحسن الثاني، الدار

البيضاء

anassbou352@gmail.com

الكلمات المفتاحية: التواصل البيداغوجي؛ أشكال التواصل البيداغوجي؛ مظاهر التواصل

البيداغوجي؛ عناصر التواصل البيداغوجي؛ معوقات التواصل البيداغوجي

Keywords: Pedagogical communication; forms of pedagogical communication; manifestations of pedagogical communication; elements of pedagogical communication; obstacles to pedagogical communication

الملخص

تعرف الدراسة - في البداية - التواصل البيداغوجي، وتبين أشكاله ومظاهره، ثم تستعرض العناصر المكونة له، وتختتم الدراسة محاولتها بتوضيح معوقات التواصل البيداغوجي.

Abstract

The study defines - at the beginning - educational communication and shows its forms and manifestations, then reviews its constituent elements, and the study concludes its axes by clarifying the obstacles to educational communication.

المقدمة

يكتسي موضوع التواصل أهمية كبرى عند مختلف الباحثين من تخصصات معرفية متعددة كاللسانيات وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد، فضلا عن العلوم المسماة بالحقة كالفيزياء والطبيعيات، وقد ساهمت كل هذه الحقول المعرفية في صناعته ووضع مبادئه وإنتاج مقولاته وتصوراتهِ خصوصا بعد الانفجار المعلوماتي الذي عرفه العالم منذ انتشار الانترنت بين الأوساط الاجتماعية.

ويعتبر الحقل التربوي بؤرة انصهار كل أنواع العلوم والمعارف لكونه نسقا من العلاقات المتشابكة والمعقدة بين بنيات متنوعة تتميز بالدينامية والتطور، تتوخى تجويد العملية التعليمية - التعلمية قصد تكريس قيم المجتمع المثلى وتحقيق الكفايات المنشودة للارتقاء بالفرد والمجتمع. ولا يمكن بلوغ هذا المستوى إلا عبر الانطلاق من النواة الأولى لأجراً الفعل التعليمي والمتعلمية في الفصل الدراسي كفضاء تتجسد فيه بنية العلاقات الرابطة بين عناصر العقد الديداكتيكي عبر شبكة من آليات التواصل البيداغوجي. ومنه فإن التواصل البيداغوجي يلعب دورا رياديا في تسهيل عملية تبليغ الرسالة التربوية (القيم، المعارف، المهارات، القدرات، الكفايات...) من جهة، ومن جهة أخرى في تحقيق الكفاية التواصلية التي تجعل من المتعلم مواطنا يفهم مجتمعه ويتواصل معه وقادرا على الانخراط فيه بشكل جيد، بل هو الوسيلة الأهم والأساس في تفاعل عناصر بنية جماعة الفصل الدراسي معرفيا ووجدانيا لتحقيق المبتغى وبناء ذاك الملمح الذي خططناه، إذ لا يمكن تجويد التعليمات والرفع من أداء المتعلم إلا عبر تجويد أنماط التواصل داخل النسق الصفي.

١- تعريف التواصل

يندرج مفهوم التواصل إبستمولوجيا ضمن نظرية التواصل باعتبارها مجموع الأنساق الواصفة لسيرورة التبليغ والتلقي عبر قناة بين جهاز وآخر وفي الغالب بين الكائن الإنساني وغيره (غريب، وآخرون، ٢٠٠١، ص ٣٤٧ - ٣٤٨)، كما يرتبط هذا المفهوم (التواصل) بما يسمى نموذج التواصل *Modèle de communication* وهو تمثيل يصف أو يفسر عمليات التواصل ووضعياته انطلاقا من نظرية أو حقل دراسي معين، مثل الهندسة وعلم النفس وعلم اللغة. فالمهندس - مثلا - يهتم بالجانب الكمي في نقل المعلومات والقناة المستعملة في هذا النقل، ويهتم عالم النفس والاجتماع بالآثار المتبادلة بين المرسل والمستقبل وبالعلاقة مع المحيط، أما عالم اللغة فيهتم بالسنن أو الشفرة اللغوية (حبوبي، ١٩٩٣) ومن أشهر نماذج التواصل نموذج رومان ياكوبسون Roman Jakobson القائم على: المرسل (الوظيفة التعبيرية) والمرجع (الوظيفة المرجعية) والرسالة (الوظيفة الشعرية) والقناة (الوظيفة

الإفهامية) والشفرة (الوظيفة الميتalinguistic) والمتلقي (الوظيفة الانفعالية) (Jakobson, 1963, p 56).

التواصل، لغة، هو الإبلاغ والاطلاع والإخبار أي نقل خبر ما من شخص إلى آخر وإخباره به وإطلاعه عليه. ويعني التواصل وحدتي التواصل والتوصيل أي إقامة علاقة مع شخص ما أو شيء ما، كما يشير إلى فعل الإيصال والتبليغ، أي إيصال شيء ما إلى شخص ما، وإلى نتيجة ذلك الفعل، ويدل، أيضا، على الشيء الذي يتم تبليغه، والوسائل التقنية التي يتم التواصل بفضلها. (Robert, 1981, p 342)

التواصل هو الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور، إنه يتضمن كل الرموز الذهنية مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان، ويتضمن، أيضا، تعبيرات الوجه وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والتلغراف والهاتف وكل ما يشملها آخر ما تم من الاكتشافات في المكان والزمان (Mucchielli, 1980, p 96).

العملية التواصلية فعل يقوم على نقل المعلومات من مصدر إلى هدف، ويتحقق ذلك بين فردين أو بين مجموعة من الأفراد، وعملية التواصل تشمل مجموعة عناصر هي المرسل والمتلقي والرسالة والشفرة أو السنن والمرجع، كما أنها عملية تحدث من خلال اتصال فردين يشتركان في سجل معرفي وقيمي (حبيبي، ١٩٩٣، ص ٦١).

ويتضمن التواصل كل رموز الذهن سواء تعلق الأمر برموز اللغة كوسيلة للتواصل محض إنسانية أو تعلق الأمر بأشكال التواصل غير المنطوق كالكتابات والحركات الجسمية ونبرات الصوت وغيرها، وهناك وسائل لتبليغ رموز الذهن في الزمان والمكان، إذ يمكن أن نميز هنا بين وسائل سمعية منطوقة (قناة صوت - سمعية) مثل اللغات والأصوات، ووسائل مرئية (قناة بصرية) مثل الحركات واللباس وتعابير الوجه وتوزيع الوجه وتنظيمه، كما نميز بين وسائل شمية (قناة شمية) مثل الرائحة والعطر أو وسائل ذوقية كالطعام (قناة ذوقية) (جماعة من الباحثين، ١٩٨٩، ص ١٩).

وفي السياق نفسه تتحدث الأدبيات التربوية عما يسمى بـ"وضعية التواصل"، وهي الوضعية التي يوجد فيها أفراد أثناء عملية التواصل والتي تشمل: ١- الأفراد المتواصلين: وضعهم، سنهم، أدوارهم، ٢- نوايا التواصل، ٣- العلاقات بين المتواصلين، ٤- الإطار الزماني والمكاني (غريب، وآخرون. ٢٠٠١، ص ٢٩٧).

٢- مفهوم البيداغوجيا

لا تدرس البيداغوجيا النظم التربوية دراسة علمية، بل تفكر فيها بغرض مد النشاط التربوي للمدرس بأفكار موجهة، فالبيداغوجيا نظرية تطبيقية للتربية تستعير مفاهيمها الأساسية من السيكلوجيا والسوسيولوجيا، وقد عرفها إميل دوركهايم Emile Durkheim بأنها نظرية تطبيقية للتربية تستعير مفاهيمها من علم النفس وعلم الاجتماع (Durkheim, 1968, p 11).

واعتبرها أنطون مكارينكو Anton Makarenko العلم الأكثر جدلية، والأكثر حركية، والأكثر تعقيدا، والأكثر تنوعا، ولا سيما نظرية التربية التي هي قبل كل شيء ترمي إلى هدف عملي (مكارينكو، ص ٣٢)، وذهب روني أوبر René Hubert إلى أنها ليست علما ولا تقنية ولا فلسفة ولا فنا، بل هي هذا كله منظم وفق تمفصلات منطقية (أوبر، ١٩٦٧، ص ٣٦).

أما جاك أردوانو Jacques Ardoino، فقد اعتبر البيداغوجيا مجرد خادمة للتربية تعمل على تنظيم التقنيات والطرائق والأدوات. (Adroino, 1977, p 74)

من الصعب تعريف البيداغوجيا تعريف جامعا مانعا، ويعود ذلك إلى تعدد دلالاتها الاصطلاحية من جهة، ومن جهة ثانية إلى عدم وضوح الحدود التي تفصلها عن مفاهيم أخرى مجاورة لها مثل التربية والتعليم، ويظهر التداخل بين البيداغوجيا والتربية في صعوبة الفصل بين مجال وطبيعة كل منهما، وقد يكون الأمر هو الذي دفع ببعض الباحثين إلى الحديث عن بيداغوجيا نظرية وأخرى تطبيقية: فالبيداغوجيا التطبيقية هي فن للتعليم والتربية قائم على معايير تجريبية، حيث تلعب تجربة المدرس دورا أساسيا في تعامله مع التلاميذ، والمواد الدراسية، أما البيداغوجيا النظرية فتهدف إلى تحليل التربية ذاتها، ومهما يكن، فإن التمييز بين البيداغوجيا والتربية استند لدى معظم الباحثين على التمييز بين طبيعة كل منهما ونوعية مقارنتهما للنشاطات البيداغوجية، فالبيداغوجيا حسب أغلب تعريفاتها بحث نظري، أما التربية فممارسة وتطبيق (غريب، وآخرون، ٢٠٠١، ص ٢٥٥).

تشير البيداغوجيا - إذن - إلى معنيين متميزين هما:

- تستعمل للدلالة على الحقل المعرفي الذي يهتم بالممارسة التربوية بأبعادها المتنوعة (السياسية، الأخلاقية، الفلسفية، الاجتماعية...)، وبهذا المعنى نتحدث عن البيداغوجيا النظرية أو البيداغوجيا التجريبية أو البيداغوجيا التطبيقية... ويتضح من ذلك أن الحديث يدور هنا حول تخصص معرفي علمي قائم بذاته بنفس الطريقة التي نتحدث بها عن السيكلوجيا.

- تستعمل البيداغوجيا للإشارة إلى توجه أو نظرية بذاتها، تهتم بالتربية من الناحية المعيارية ومن الناحية التطبيقية، وذلك باقتراح تقنيات وطرق للعمل التربوي، وبهذا المعنى تستعمل المفاهيم التالية: البيداغوجيا المؤسساتية، البيداغوجيا اللاتوجيهية...

٣- تعريف التواصل البيداغوجي

يقصد بالتواصل البيداغوجي كل أشكال وسيرورات العلاقة التواصلية بين مدرس وتلاميذ. إنه يتضمن نمط الإرسال اللفظي وغير اللفظي بين مدرس (أو ما يقوم مقامه) والتلاميذ أنفسهم، كما يتضمن الوسائل التواصلية والمجال والزمان، وهو يهدف إلى تبادل أو تبليغ الخبرات والمعارف والتجارب والمواقف مثلما يهدف إلى التأثير على سلوك المتلقي. إن هذا التعريف يتضمن مجموعة من المكونات الأساسية لفعل التواصل البيداغوجي، وهي:

- هناك تفاعلات وعلاقات متبادلة بين مدرس وتلاميذ أو بين التلاميذ أنفسهم.
- هناك سياق للتواصل البيداغوجي في الزمان والمكان ووسائل لفظية وغير لفظية.
- وظيفة التواصل البيداغوجية قد تكون للتبادل أو التبليغ أو التأثير.
- يتميز التواصل داخل القسم بعدة خصائص وسمات، وأبرزها:
- الإطار العام الذي يندرج في التواصل، ويتضمن الشروط المادية للتواصل والتوزيع الزمني اليومي وأوضاع المدرس والتلاميذ.
- مصادر التواصل، وأهمها المدرس (غريب، وآخرون، ٢٠٠١، ص ٤٤).

٤- أشكال التواصل البيداغوجي ومظاهره

أ- أشكاله:

- **التواصل اللفظي:** هو كل أشكال التواصل الممررة عبر المنطوق، والتي تستخدم اللغة الملفوظة بكل رموزها وعلاماتها من حروف وكلمات وجمل وتراكيب نحوية وتعابير بلاغية منطوقة...

- **التواصل غير اللفظي:** يعني أنماط التواصل الذي لا يوظف اللغة الملفوظة، بل يوظف نظاما من العلاقات غير اللفظية مثل الحركات وهيئات الجسم وتوجهاته وكيفيات تنظيم الأشياء وغيرها من العلامات التي تبلغ بفضلها المعلومات.

ب- مظاهره:

تتمثل أبرز هذه المظاهر فيما يلي:

- **التواصل الوجداني:** القدرة على التواصل من خلال التشبع بقيم التعاون واحترام الآخر داخل الجماعة.
- **التواصل الحسي الحركي:** التواصل عن طريق أنشطة حركية تعبيرية مثل الرسم والرقص والموسيقى.

- التواصل المعرفي: علاقة الذات بموضوع التعلم من خلال الفهم والتحليل والتركيب والنقد.

- التواصل بالوسائط الرقمية: يمكن استعمال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات من خلال استثمار شبكات التواصل الاجتماعي المتاحة في التواصل، وتقاسم الوثائق والملفات بين المتعلمين، وتتبع إنجاز مشاريعهم التعليمية وأنشطتهم اللاصفية (وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي. ٢٠٠٩، ص ٦).

٥- العناصر المكونة للتواصل البيداغوجي

أ- عناصر العقد الديداكتيكي وعلاقتها بخطاطة ياكبسون التواصلية

تحدد هذه العناصر في الأستاذ والمتعلم والذين تربطهما علاقات تواصلية محددة وفق مثلث العقد الديداكتيكي: (المتعلم - الأستاذ - الكفايات المنشودة)، ولابد قبل تشريح هذه العلاقات التواصلية المتفاعلة داخل هذا النسق، من الإشارة إلى تعريف العقد الديداكتيكي.

- العقد لغة: جاء في لسان العرب "العقد: نقيض الحل. والمعقدة: المعاهدة والميثاق... والعقد: العهد، والجمع عقود، وهي أوكد العهود، ويقال: عهدت إلى فلان في كذا وكذا وتأويله ألزمته ذلك، فإذا قلت: عاهدته أو عقدت عليه فتأويله أنك ألزمته ذلك باستيثاق" والعقد عقد اليمين، ومنه قوله تعالى: "ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان" (سورة المائدة، الآية ٨٩)، وعقدة النكاح وكل شيء: وجوبه وإبرامه، والعقدة في البيع: إيجابه" (ابن منظور، ١٩٩٠، ص ٣٠٩).

- العقد اصطلاحاً: يراد "بالعقد" اتفاق يلتزم بموجبه شخص أو عدة أشخاص تجاه شخص أو أشخاص آخرين بالقيام بعمل أو عدم القيام به (غريب، ٢٠٠٦، ص ١١٣)، ومعنى هذا توافق إرادتين أو أكثر على إنشاء رابطة أو علاقة تختلف طبيعتها وشكلها تبعاً لاختلاف مضمون بنود ومجال العقد المبرم.

- العقد الديداكتيكي: عرّفه الأستاذ محمد الدريج بأنه "مجموع القواعد التي تكون القانون الذي يحكم العلاقات في الحقل البيداغوجي، وينبغي للمدرس أن يتعاقد ضمناً مع تلامذته، وذلك عن طريق تحديد المهام والأدوار والوظائف والأعمال، التي يجب أن يقوم بها كل طرف في علاقته مع الجماعة، فلا بد من تحديد واجبات وحقوق التلميذ، وواجبات وحقوق المدرس (الدريج، <http://www.profvb.com/vb/t9956>).

وحسب أعمال جي بروسو Guy Brousseau يمكن تعريف العقد الديداكتيكي بأنه "مجموع السلوكات الصادرة عن المدرس والمنتظرة من طرف المتعلمين، ومجموع السلوكات الصادرة عن المتعلم والمنتظرة من طرف المدرس، وهذا العقد عبارة عن مجموع القواعد التي تحدد، بصورة أقل وضوحاً وأكثر تستراً، ما يتوجب على كل شريك في العلاقة الديداكتيكية

تدبيره، وما سيكون موضوع محاسبة أمام الآخر " (Brousseau, <http://guy-brousseau.com/tag/contrat-didactique>).

ويمكن القول بأن العقد الديدانتيكي: تلك المحددات الضابطة لتفاعلات العلاقة التربوية المبرمة بين المدرس والمتعلم في وضعية تعليمية-تعليمية، والقائمة على أساس اتفاق وتحديد صريح أو ضمني لموقع والتزامات ومهام كل منهما تجاه بعضهما البعض، في ضوء النموذج التربوي المتبنى وتجاه المعرفة وطرق تحصيلها كطرف ثالث في العلاقة.

وإذا ما قمنا بإسقاط هذه العناصر على خطاطة ياكبسون التواصلية، فإننا سنتوصل إلى كون: المرسل هو المدرس والمرسل إليه هو المتعلم والرسالة هي المعرفة أو المحتوى والقناة هي لغة التخاطب المتمثلة في الكلام والحركات والإيماءات والصور وغيرها من أشكال التعبير الرمزي المتداولة داخل فضاء الفصل الدراسي. غير أنه من الضروري الأخذ بعين الاعتبار التغذية الراجعة وأشكال التواصل البيصفي بين المتعلمين مما ينتج عنه شبكة من الروابط التواصلية المتفاعلة وفق عقد مسبق قائم على تنفيذ تعليمات (أسئلة) بعينها وفق مهمة محددة ومتفق حولها، وذلك قصد الحفاظ على السير العادي لسيروية بناء التعلم المخطط لها، ولتوضيح ذلك سنحاول تبين هذه الروابط أو العلاقات بشكل مفصل.

ب- علاقة مدرس - متعلم

تتأرجح هذه العلاقة بين نموذجين من العقد الديدانتيكي:

- في النموذج التقليدي: يتموقع المدرس في هذا النموذج كسلطة مهيمنة وكمالك للمعرفة وسيد يتحكم في الوضعية البيداغوجية، إذ أنه يعلم مسبقاً الأهداف التعليمية العامة منها والخاصة والإجرائية، وهو يتحكم في المعارف المدرسة، كما يحدد أساليب التقويم، ويقود لعبة التعلم وينظمها أو يضبطها، أما المتعلم، فيظل سلبياً في العملية ويقتصر دوره على التلقي من المدرس.

- في النموذج الحديث: يعود في هذا النموذج التوازن في عملية التواصل بين المدرس والمتعلم، إذ يكون هذا الأخير على دراية بالمهمة المطلوبة منه إنجازها، وبالهدف المنشود من الدرس، ويساهم بنفسه في بناء تعلماته وفق سيرورة من الأنشطة الفردية والجماعية، بينما يقتصر دور المدرس على التوجيه والإرشاد، ويعتبر هذا النموذج أكثر انسجاماً مع دلالة العقد الديدانتيكي وأطرافه الثلاث المتفاعلة (المدرس - المتعلم - الرسالة التربوية).

وترتبط هذه العلاقة بنوع من التواصل غير المتماثل أو غير المتكافئ في كلا النموذجين بحكم أن المدرس هو من يحدد المهمة والتعليمات (الأسئلة) ويحفز ويراقب ويوجه ويواكب، ثم يقوم ويقيس مدى تحقق الأهداف المرسومة ومستوى المكتسبات بينما المتعلم يظل دائماً ينتظر المهمة والتعليمات التي سوف يحددها المدرس لكون العملية التعليمية تتم بشكل

نظامي ومؤسساتي، ولا يتعلق الأمر بالتكوين العصامي، إذ أن تعويد المتعلم على التعلم الذاتي يخضع بدوره للتوجيه. (Loisier, Mars 2009, www.refad.ca) يقوم المدرس في إطار هذا النموذج بدور "الوسيط" بين المتعلم وعالم المعارف والمعلومات التي تواجهه يوميا، والوساطة معناها تمكين المتعلم من اختيار المعارف وتوظيفها على خلاف الدور التقليدي للمدرس والذي يقوم على تبليغها (غريب وآخرون، ٢٠٠١، ص ١٩٥).

ج- علاقة متعلم - متعلم

تعتبر هذه العلاقة منعقدة ومهمشة في النموذج التقليدي المشار إليه آنفا. بينما تنتعش في النموذج البيداغوجي الحديث القائم على تقسيم التلاميذ إلى مجموعات عمل ينتخبون مقررا ومُيسرا ويتفاعلون بشكل منظم لإنجاز المهمة الموكولة إليهم وفق تعليمات موجهة من طرف الأستاذ كما يزودون بشبكة من التقويم الذاتي ترشدهم للبقاء على سكة العمل وعدم الزيف عنها. يرتقي تواصلهم مع الأستاذ إلى مرتبة الند للند ولا يلجؤون إليه إلا بعد الاقتناع بعجزهم الكلي عن تخطي المشكلة المطروحة لأنهم مزودون بكل الوسائل المتاحة وما عليهم إلا البحث والتقصي للوصول إلى حل الوضعية - المشكلة.

ولضمان إنتاجية فعالة في العمل بالمجموعات يتوجب خلق جو من التفاهم القائم على المساواة في تقديم الاقتراحات وإبداء الآراء والمساهمة في إنجاز المهمة المطلوب، ولذا فعلى الأستاذ التدخل بين الفينة والأخرى لتسوية الخلافات بين المتعلمين حرصا على تحفيزهم دون الغلو في المنافسة بينهم. (Loisier, Mars 2009, www.refad.ca)

د- علاقة متعلم - رسالة (الموارد المعرفية والمهارية والسلوكية والقيمية...)

فكما أسلفنا في النموذج التقليدي، فإن المعرفة وكل مصادرها في ملك الأستاذ ويمنحها للمتعلم على قدر مستواه العقلي والنفسي والحس- الحركي مسترشدا بالهدف الموضوع مسبقا، أما المتعلم، فما عليه إلا تسجيل ما يلفظ به المدرس لتدوينه والعمل على حفظه، وتذكره كلما طلب منه ذلك، وبالتالي فالعلاقة الرابطة بين المتعلم والمعرفة علاقة استقبال واستهلاك واجترار، بينما في النموذج الحديث القائم على التدريس بمدخل الكفايات فإن المتعلم يوضع في وضعية - مشكلة تجعله في مواجهة عائق إبستمي يستقره ويدحض تمثلاته حول الموضوع المدروس مما يجعله يتساءل ويبني إشكاليته أو سؤال النقصي، ثم ينطلق نحو بناء المعرفة من خلال البحث والتحري الوثائقي موظفا مختلف الوسائل للوصول إلى إيجاد الحل مسترشدا بالتعليمات والتوجيهات المقدمة من طرف الأستاذ.

وتستند هذه المقاربة إلى أدبيات البيداغوجية الحديثة التي تعتبر أن للمعرفة وجودا يرتبط بالوجود الإنساني للمتعلم كذات مستقلة عن المحيط وتتمتع بإمكانيات وقدرات ذكائية وخصائص سيكولوجية نمائية (فرحاتي، ٢٠١٠، ص ٤٧) تؤهله للنمو والتطور (آيت محمد،

وأخرون، ١٩٩١، ص ٣٢)، وخصوصياته في الاختيارات البيداغوجية (السليمانى، ٢٠١٣، ص ١٠٤) باختيار الملائم من المواد والمتماشي مع فضوله، المستجيب لتساؤلاته التلقائية، بما يعود على التفكير النقدي المستقل (السليمانى، ٢٠١٣، ص ٣٢) وبناء المعرفة، وليس تلقئها، وذلك وفق تفاعل الذات مع الموقف التواصلى في إطار وضعية-مشكلة بنائية وما ينتج عنه من تبادل للآراء والمقارنات تقضي بالمتعلم إلى حالة من اللاتوازن والشك المعرفي (اجبار، ٢٠٠٩، ص ٢٨) تدفعه إلى بذل الجهد لإعادة التوازن المفقود لما تعرض له المتعلم من مواجهة مباشرة مع تجارب جديدة (البقالي، ٢٠٠١، ص ٧٨) استقرت مكوناته المعرفية والوجدانية، ومقتضى هذا أن المعرفة نسبية وتقريبية بتعبير كارل بوبر Karl Popper لم تعد حكرا على الأستاذ، إذ مهما كان الأستاذ متمكنا من المادة المعرفية، فإنها سرعان ما تصبح متجاوزة فاقدة لقيمتها، وبالتالي أضحت دوره خلق شروط سيكولوجية ومادية وعلائقية تسهم في تحريك سبرورة بناء التعلّات واكتسابها.

وقد فرضت هذه المنطلقات الإستمولوجية طابعا خاصا على صورة الفعل التواصلى البيداغوجي، جعلت منه يبدو كأنه حوار أفقي دائري يشارك فيه كل الأطراف الفاعلة بما يشبه حلقة بيداغوجية (السليمانى، ٢٠١٣، ص ١٠٤) لا يركز، كما في النموذج الأحادي، على الحوافز الخارجية كالتهنيط والعقاب، وإنما على حوافز داخلية (آيت محمد، وآخرون، ١٩٩١، ص ١٤١) تنطلق من رغبات وميول وحاجيات المتعلم لإعطاء معنى للمعرفة المراد إكسابها للمتعلّم، ويتحفز أكثر عندما يحقق ذلك التوازن العقلي_الوجداني عند تمكنه من إيجاد حل للمشكلة.

٦- معوقات التواصل البيداغوجي

أ- معوقات نفسية

إن العلاقات داخل نسيج العملية التعليمية التعليمية لا تتوقف فقط على الجانب المعرفي وحده، بل تتعدى هذا الجانب لتطال بعدا نفسيا واجتماعيا، هذا البعد الذي يتدخل بقوة لينسج بين المدرس والمتعلمين في وضعيات التعليم التعلم علاقات نفسية اجتماعية تلعب دورا كبيرا في تشكيل المناخ السائد داخل القسم، فالناظر كما يرى مارسيل بوستيك Marcel Postic في العلاقة التربوية في بعدها النفسي الاجتماعي سيلاحظ الترابط بين سلوك المدرس وتلامذته، ذلك أن نوعية سلوك المدرس من شأنها أن تخلق لدى المتعلمين نوعا من السلوك لا نراه لدى نفس التلميذ عندما يكون مع مدرس آخر (بوستيك، ١٩٨٦، ص ٧٩ - ٨٠).

وهكذا يظهر أن كل طرف من أطراف الوضعية التربوية يدرك الطرف الآخر من خلال مرائش ينكسر عليها الواقع الموضوعي الذي يسود فضاء الفصل الدراسي، ومن هذه المرائش يذكر جيلي M. Gilly نوعية المادة، وما يصرح به التلاميذ، ثم سلوك المدرس داخل

الفصل، بل وحتى هندامه ومظهره الخارجي، وعلى حد قوله: "إن التمثلات الفردية والاجتماعية هي التي تجعل العالم يتحدد وفق ما نتصور أنه كائن أو وفق ما يجب أن يكون (Gilly, 1980, p 29)، وهذا ما دفع بهذا الباحث إلى اعتبار أن المدرس الذي يعطي لتلميذ ما مقاسا مدرسيا مرتفعا يميل إلى أن يلصق بهذا التلميذ صفات إيجابية قد لا تكون في الواقع موجودة فيه، وهذا سلوك غريب (Gilly, 1980, p 29) يدل مرة أخرى على مدى تأثير العلاقة التربوية بالمراشح التي يجعلها كل طرف بينه وبين الطرف الآخر، وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن مجموعة من الصور والمعوقات ذات العلاقة بالتمثلات:

- الصورة الخاطئة التي يحملها المدرس عن نفسه.
- الصورة التي يحملها المدرس عن تلاميذه.
- المزاج الشخصي للمدرس.
- عجزه عن صياغة رسالة واضحة تأخذ بعين الاعتبار ذات المتعلم وحاجاته واهتماماته.
- تركيز تفكير المدرس حول ذاته وأفكاره ومعتقداته، يحول دون متطلبات العقد البيداغوجي المتمركز حول التلميذ.
- تكوين المدرس أفكارا مسبقة تتعلق بالمتعلم من قبيل تلميذ فاشل/كسول...
- قصور التخطيط للعملية التدريسية وتهيئة بيئة التعلم للمتعم بما يساهم في نشاطه الذاتي نحو التعلم (بروال، ٢٠١٤، ص ٩٣).

ترتبط أهم هذه المعوقات بغياب مناخ للحرية والتحرر، فالسمة الأساسية للمجتمعات الحديثة هي التغير المستمر، إن خلق مواطن قادر على التكيف ومعايشة هذا التغير يحتم على المدرس أن ينمي لدى تلميذ اليوم الثقة في قدراته الطبيعية على المعرفة، وبالتالي القدرة على تكوين نفسه بنفسه، وتعتبر البيداغوجيا اللاتوجيهية أبرز من تطرق للموضوع حيث أكدت على ثلاثة مواقف شخصية وذاتية قد تمكن مُسهّل التعلم من خلق المناخ المساعد لمتعلميه، فإن غابت غاب معها أي تواصل بيداغوجي بين أطراف العملية التعليمية التعليمية:

- مدى الانسجام مع الذات: فالمدرس الذي يحمل قناع الأستاذ، ويجيد تقمص هذا الدور طيلة النهار على خشبة القسم لن يخلق إلا علاقات مزيفة مع تلامذته الذين يحاولون، هم بدورهم، الظهور بوجه غير وجههم الحقيقي والتصرف انطلاقا مما يبدو للمدرس مقبولا وليس انطلاقا من ذواتهم واهتماماتهم.
- مدى حضور التقدير - الثقة - التقبل: المقصود بها احترام المتعلم وأحاسيسه وآرائه وشخصه، إنه كذلك تقبل للآخر كشخص مختلف وضمان لحيته في الاختلاف.
- مدى حضور التفهم المتعاطف: يعني مدى انصهار المدرس داخل التلميذ ومدى نظره بعيني التلميذ ومدى التفهم الحميمي لكيونة التلميذ دون إصدار أحكام عليه.

ب- معوقات اجتماعية

تتمثل أساسا في المكتسبات ما قبل العلمية أو ما قبل المدرسية، وهي جملة الأفكار والتصورات التي يملكها التلاميذ عن الموضوع مسبقا صحيحة كانت أو خاطئة، وكذلك ما يملكه التلاميذ من معلومات ومواقف وأحكام وقيم تتعلق بمسائل الدرس، والتي غالبا ما يستقونها ويكتسبونها من محيطهم العائلي والاجتماعي، وترتبط هذه المعوقات، أيضا، بمختلف الظواهر التشريعية والمظاهر التسييرية والإدارية، وكذلك علاقات المدرس بالجماعات الأخرى المهمة بالتلميذ كالأسرة وجمعية آباء وأولياء التلاميذ وغيرها، وهي كلها عوامل تلعب دورها في تحسين مردودية التعليم، كما أنها تساعد أو تعيق المدرس في خلق تواصل تربوي سليم، إذ كلما كانت إدارة المؤسسة والأسرة متعاونتين، كلما شجع ذلك على خلق تواصل فعال بين الأطراف المعنية، ومن ثم خلق تواصل تربوي داخل الفصل، والعكس بالعكس.

ج- معوقات ديداكتيكية ومادية

قد تعترض التواصل البيداغوجي صعوبات ديداكتيكية مرتبطة بالممارسة التربوية ونوعية المادة المعرفية المقدمة وغير ذلك، ويمكن أن نجعلها في الوجه القسري للتعليم، ويرتبط هذا المعوق بالمسلمات الضمنية التي يركز عليها التعليم وعدم الثقة في قدرات التلميذ الطبيعية على التعلم، وبالتالي ضرورة توجيهه ومراقبته والاعتقاد بأن كل ما يتم تعليمه يتم تعلمه. إن هذا الوجه القسري للتعليم يتجلى في الوصاية المعرفية التي يمارسها الأستاذ على تلامذته، فهو الذي يتسأل من برجه العاجي عن حاجات التلميذ ويحدد ما ينبغي تلقينه، ليبدو وكأنه الحكيم والراشد الذي يأخذ على عاتقه مهمة تكوين أشخاص لم يبلغوا مرحلة النضج، مهمة تتجسد في التقرير والتوجيه والتلقين والمراقبة، ويتضح ذلك من خلال الملامح التالية:

- فرض محتوى الدرس: فالمدرسة تحدد مضمون الدرس دون مراعاة انشغالات المتعلم واهتماماته وتجاربه الشخصية على اعتبار أنه، في نظرها، قاصر وغير قادر على تحديد حاجاته في التعلم.

- فرض المقرر الواحد على الجميع: إن المدرسة في شكلها الحالي تنكر على التلميذ حريته في الاختلاف وتجرده من خصوصياته.

- فرض التقويم: إن الثقة العمياء في قدرات المدرس هو ما دفع بالنظام التربوي إلى جعله الفاعل الأساسي في عملية التقويم، فيما أنه مصدر المعرفة من الطبيعي أن توكل إليه مهمة قياس مستوى المتعلم وتطور أدائه.

د- تصنيف آخر

يصنف دليل التواصل البيداغوجي الصادر عن وزارة التربية الوطنية بالمغرب - مثلاً - هذه العوائق إلى نوعين: أولاهما عوائق ذاتية، وهي إما ذات صلة بالمدرس أو بالمضمون أو بالوسيلة أو بالمتعلم، وثانيهما عوائق موضوعية، وهي إما ذات صلة بالمجال أو بالزمان أو بالحاجات أو بالمجتمع (وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي، ٢٠٠٩، ص ٨).

الخاتمة

إذا كان الهدف من التربية تكوين الفرد المنشعب بقيم الحرية والمبادرة والإبداع والتواصل الاجتماعي والاعتماد على الذات والاستقلالية في التفكير والتفاعل الخلاق مع الآخرين... فإن تربية هذا النموذج من الأفراد يستوجب تنظيم الممارسة التعليمية التعلمية من خلال تواصل بيداغوجي يجعل من المتعلم عنصراً فاعلاً ويقلص من أي هيمنة خارجية عليه.

ثبت المصادر

المراجع العربية

- ❖ جبارة، حمد الله. (٢٠٠٦). التواصل البيداغوجي الصفي: دينامياته، أسسه ومعوقاته. منشورات علوم التربية.
- ❖ أوبر، روني. (١٩٦٧). التربية العامة. ط ١. ترجمة عبد الله عبد الدائم. دار العلم للملايين. بيروت.
- ❖ آيت محمد، موحى وآخرون. (١٩٩١). المدرس والتلاميذ: أية علاقة؟. دار الخطاب للطبع والنشر. الجديدة.
- ❖ بروال، مختار. (فبراير ٢٠١٤). التواصل البيداغوجي ومعيقاته: مقارنة تحليلية من منظور العقد البيداغوجي الحديث. مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية. العدد الخامس. جامعة الوادي - الجزائر.
- ❖ البقالي، عبد العالي. (٢٠٠١). التواصل واستعمال التقنيات الحديثة في التدريس الجامعي: مقارنة معرفية. في: "التواصل وأبعاده اللسانية والسيكولوجية والتربوية والتقنية". منشورات مختبر العلوم المعرفية. فاس.
- ❖ بوستيك، مارسيل. (١٩٨٦). العلاقة التربوية. ترجمة محمد بشير النحاس. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس.
- ❖ جماعة من الباحثين. (١٩٨٩). المدرس والتلاميذ، أية علاقة؟. سلسلة علوم التربية (٣). دار الخطابي للطباعة والنشر. الدار البيضاء.
- ❖ حبيبي، ميلود. (١٩٩٣). الاتصال التربوي وتدرّس الأدب: دراسة وصفية تصنيفية للنماذج والأنساق. المركز الثقافي العربي، بيروت.
- ❖ الدريج، محمد. عودة إلى تعريف الديداكتيك. تم الاطلاع عليه في ٢٠٢٤/٠١/٠٥. في: <http://www.profvb.com/vb/t9956>
- ❖ السليمان، العربي. (٢٠١٣). المعين في التربية. ط ٤. المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش.
- ❖ غريب، عبد الكريم، وآخرون (٢٠٠١). معجم علوم التربية: مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك. ط ٣. سلسلة علوم التربية. عدد مزدوج ٩ - ١٠. منشورات عالم التربية، الدار البيضاء.
- ❖ غريب، عبد الكريم. (٢٠٠٦). المنهل التربوي: معجم موسوعي في المصطلحات والمفاهيم البيداغوجية والديداكتيكية والسيكولوجية. الجزء الأول والثاني. منشورات عالم التربية. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء.

- ❖ فرحاتي، العربي. (٢٠١٠). أنماط التفاعل وعلاقات التواصل في جماعة القسم الدراسي وطرق قياسها. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر.
- ❖ مكارينكو، أنطون. (د. ت). التربية الاشتراكية. ترجمة أديب يوسف شيش. دار الفكر.
- ❖ ابن منظور. (١٩٩٠). لسان العرب. ج ٩. بيروت.
- ❖ وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي. (٢٠٠٩). دليل التواصل البيداغوجي وتقنيات التنشيط التربوي.

المراجع الأجنبية

- ❖ Adroino, Jacques. (1977). Evolution de la relation pédagogique, In: education et pédagogie. coll. Encyclo poche larousse. Paris.
- ❖ Brousseau, Guy, accédé le 06/01/2024, à: <http://guy-brousseau.com/tag/contrat-didactique>
- ❖ Durkheim, Emil. (1968). les règles de la méthode sociologique. P.U.F., Paris.
- ❖ Gilly, Michel. (1980). Maître – élève, rôles institutionnels et représentation. P.U.F., Paris.
- ❖ Jakobson, Roman. (1963). Essai de Linguistique générale. Ed. de Minuit. Paris.
- ❖ Loisier, Jean. Guide communication éducative et de choix technologiques en formation à distance, document préparé pour le Réseau d'enseignement francophone à distance du Canada. Ph.D .Mars 2009, REFAD, accédé le 08/01/2024, à: www.refad.ca.
- ❖ Mucchielli, Roger. (1980). Communications et réseaux de communication. Ed. E.S.F., Paris.
- ❖ Robert, Paul. (1981). Le petit Robert. Paris.